DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الثامن

ديجول .... هل كان أديبًا؟

بالنسبة إلى بعض الأساتذة في المراحل الثانوية في فرنسا، كان الجنرال شارل ديجول رجلاً ممتازاً على الأصعدة التاريخية والسياسية والعسكرية، ولكن ليس على الصعيد الأدبي، أو أقلّه ليس كاتباً جديراً بما يكفي كي يُدرَّس في مناهج البكالوريا في فرنسا، بعدما تمّ اختيار المجلّد الثالث الذي يحمل عنوان «الخلاص» من كتابه «مذكرات حرب» لينضمّ إلى نصوص هوميروس وصموئيل بيكيت التي تُدرَّس في البكالوريا القسم الأدبي.

أعلن حشد من هؤلاء الأساتذة احتجاجهم على قرار وزارة التربية هذا، وطالبوا بوضع الجنرال في «نصابه» التاريخي، لا الأدبي. وقال أحد هؤلاء: «لا نبتغي التقليل من أهمية كتابات ديجول التاريخية. ولكن في النهاية علامَ نتكلم؟ عن الأدب أم عن التاريخ؟!. أهذا هو تعليم الأدب؟. أليس هذا موت الأدب الممنهج ؟».

علينا أن نقارن بين الواقع العربي والواقع الفرنسي، بين أساتذة يعترضون على حضور الجنرال صاحب القيمة التاريخية في المنهج الأدبي الفرنسي، وبين معمر القذافي الذي كان يدلف أفكاره الأسطورية في كل شيء ليس في المدارس الليبية فحسب بل في الأذواق العامة، ومن قبله فعل الشيء نفسه العراقي المخلوع صدام حسين وبالطبع لا يختلف الرؤساء العرب الآخرون.

شارل ديجول، أو الجنرال... كما يحلو للفرنسيين أن يطلقوا عليه من منطلق الفكر

الفرنسي، حيث تعني عبارة «جنرال» بالنسبة لهم: الزعيم. ولعله الزعيم الذي أعطى فرنسا الكثير من حضورها المتوهج، لأنه كان يتبنى فكرة الوطن الأم، الذي يشمل أوطاناً عدة أخرى أيضاً، وهذه غلطته الأيديولوجية التي يقول محللون كثر أنها كانت سبباً مباشراً في فشله، وسقوطه، ليس سياسياً فحسب، بل أيديولوجياً أيضاً منذ اللحظة التي أراد فيها محاربة الشمولية السلبية بمزيد من الشمولية السلبية، فعندما كان ديجول يتكلم بلغته الشعرية عن فيكتور هوجو ودولامانيير وفونتين وجان بول سارتر، كان العالم يتغير، بحيث بدت الرؤية الشمولية للقوة أكثر حدة ووضوحاً إلى درجة أنه أراد التصدّي لها بعبارته الشهيرة للشعب الفرنسي: «لقد فهمت ماذا تريدون، تريدون فرنسا القوية؟ هذا بالضبط ما سيكون».

لدى ديجول ثقافة كلاسيكية اكتسبها عن والده المغرم بالقراءة. كان شغوفاً بالأدب الكلاسيكي، يقرأ الشعر كثيراً ويكتب غالباً على دفتر خاص به قصيدة تعجبه لينتقي منها بعض السطور أثناء إلقاء خطاب ما. كان مهووساً بالحضارات القديمة، الإغريقية واليونانية. اعتبر الفلسفة جزءاً من السياسة. قرأ لأدباء الشعب مثل دولا فونتين وبوسويه، وأحب المسرح الواقعي. لا يحب الأدباء التجديديين الذين يتطاولون على المبادئ (كما يقول في مذكراته). يقول عنه صديقه جون ميشيل فونتين: يعتقد شارل ديجول أن أي أديب يجب أن يكون دوره القومي أهم من أي دور آخر، وهذا سبب آخر في انتقاد كتاب تجديديين كثر لسياسته. لكن ما يبقى مهماً بالنسبة إلى الفرنسيين اليوم هو أن ديجول كان زعيما وقائداً، ومثقفاً. ما زال صوته الهادئ والواضح يغري أجيالاً من السياسيين الفرنسيين الذين يستعملون في كلامهم تلك العبارة الديجولية الشهيرة التي تلخص حياته وصراعاته وموته أيضاً: «ليس مهمًا أن تكون سياسياً فحسب، بل عليك أن تكون فرنسياً حقيقياً... عليك أن تكون شعباً جديراً، وعليك أن تحسن طريقتك في الحياة، كي يكون اختلافك مع الآخر مسألة مبدأ أنت بصدد الدفاع عنه، كي يكون موتك سبباً آخر يعطيك القناعة أنك عشت مخلصاً لوطنك الأم وأن موتك هو الدليل على إخلاصك لمبادئك.!»

يبقى السؤال، هل كان شارل ديجول أديباً؟ سؤال محير، خصوصاً أن شخصيته السياسية والتاريخية طاغية على كل شيء في حياته، وثمة كاتب اسمه جان جولميه أصدر

عن «شارل ديجول الأديب...» في خلاصة ما توصل إليه أن أعمال ديجول التي تركزت على شؤون الجيوش جاءت «وليدة فكر وأسلوب متينين. إنها مليئة بشاعرية الفكر. شاعرية القرن التاسع عشر». وقال: «ففي كتابة ديجول المتكبرة البصيرة يبدو الرجل واثقاً من نفسه كونه متيقناً من فكره مهما كانت العقبات التي سيواجهها متنوّعة وخطيرة». يتحدث جولميه في فصل بعنوان « ديجول والأسلوب الأدبي» عن أسلوب ديجول فيقول: إن «الموضوع لا يخلو من الأهمية فإنه بقوة العبارة تمكّن من الارتقاء إلى مستوى أعمال فنية أدبية بكتابات هي من إلهام الأحوال». وفي حديث جولميه عن كتب الجنرال، خصوصاً عن مجموعات خطبه بعد أن تطور أسلوبه، يقول: إن « ديجول مهما كانت عفويته من حيث الشكل فإنه فنان حريص برهافته على إيلائها العناية التامة فقد كان دائباً على تصحيح نصه الذي لا يرضى عنه البتة. وفي غياب أي دليل آخر يكفينا الجهد الذي يتجشمه في سبيل خطبه لإقناعنا بالجهد الذي تطلّبته كتبه». وهو لا ينسى أن دور الخطيب هو الإرشاد «فيرتب البراهين بسهولة كلية وهو بهذه البلاغة الصريحة والمباشرة المقتصرة على الوسائل الابتدائية يصل ليس فحسب إلى أسماع ولكن أيضا إلى ثقة الشعب الفرنسي المغرم بالوضوح».

الروائي وكاتب السير الذاتية بيار أسولين قال لوكالة فرانس برس: « ديجول كاتب. وأحد أهم الكتاب. إنه كاتب لامع. لم يعترض أحد عندما تلقى تشرشل جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٣، مع أنه كتب مذكراته بمؤازرة مجموعة من ٥٠ مساعداً! ديجول نفسه كان يحلم بالفوز بجائزة نوبل...»، ويضيف: « هذه الجدالات ذات طابع فرنسي بامتياز. الناس لا يميزون بين الأدب والرواية، وبالنسبة إلى الكثيرين، لا أدباء سوى الروائيين. هذا ما أسميه بطغيان الرواية. ديجول ليس مؤرخاً. مذكراته تدل على مهاراته ككاتب مذكرات ومؤلف عظيم. مقاطع كثيرة تستحق أن تكون موضع دراسات أدبية، لمقارنتها مع مؤلفات هوجو وبيجي والأعمال الأدبية الإغريقية». وهنا يكون السؤال: ما هو الأدب؟ وهل يستحق تشرشل جائزة نوبل؟ من يقرأ مذكراته؟ ومن يصنّف الكتب والكتاب؟ هناك نعود إلى معادلة قوة الشخصية في المجتمع، ربما علينا أن نتذكر أن هتلر كان رساماً فاشلاً ولو انتصر في الحرب لكانت رسومه اليوم تدرّس في المعاهد الكبرى وربما كان مدرسة في الرسم الفاشل، تشرشل كان معروفاً بنرجسيته وحبه للحضور،

كان يريد أن يكون العريس في الزفاف والميت في الجنازة، أي يريد الحشد حوله على نحو دائم، وهو عرف كيف يبتكر الدخول في لعبة غواية الأدب، والراجح أن مريدي ديجول يحاولون متأخّرين إدخاله في عالم الأدب، في زمن لم يعد الأدب أدباً ولا الرواية رواية ولا الشعر شعراً، بات هناك نوع من ضياع في الأجناس الأدبية، أو لنسمِّها الثقافة الهجينة.

ليست أهمية شارل ديجول في أنه كان أديباً بل في أنه كان محوراً للسجال بين الأدباء والكتاب، كان محاطاً من الكاتبين أندره مالرو وفرنسوا مورياك. ومن خلال مجلته الشهيرة «الأزمنة الحديثة» ما انفك سارتر يحارب ديجول ويدين ديكتاتوريته المزعومة ويشبّهه بستالين بل وأحياناً بهتلر! وكان يقف في مواجهة ديجول كالند للند. كان يمثل عبقرية الفكر في مواجهة عبقرية السياسة. لذلك، كان ديجول يحترمه على رغم كل الكلمات البذيئة التي قالها بحقه. وعندما طلبوا منه أن يسجنه بعد أن نزل إلى الشارع ضده وتجاوز كل الحدود في معارضة حكمه رد عليهم بعبارته الشهيرة التي ذهبت مثلاً: لا أحد يسجن فولتير! وهي تدل على عظمة ديجول قبل سارتر.